الوادي ..

رحلة "فكر" و "عاطفة"

(قصة من صحراء الجزيرة العربية)

1- مقدمة .

لي "جدة" لو كانت رجلا لملكت مشارق الأرض ومغاربها !.

وكم لقيت في حياتي من رجال معظمين فما رأت عيناي أهيب منها.

مع ما هي عليه من رقة ولين قلب ورهافة حس لو وزعت على الدنيا لما صاد سبع ولا جف نبع ولحطت الطير على رؤوس الناس لا تخاف ظلما ولا أذى.

حتى أنني -يشهد الله- لأجد أن من أعظم معجزات النبي عليه الصلاة والسلام قربا إلى قلبي وتأثيرا في نفسي لأني لمستها بشكل مباشر قوله عليه الصلاة والسلام فينا [أتاكم أهل اليمن: هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية] فأنا كلما نظرت في جدتي أو ذكرتها قلت في نفسي "أشهد أنك رسول الله"!.

وهي إمرأة فصيحة تنطق بالكلام فتلتقطه بعينيك قبل أذنيك لشدة بلاغته في تصوير المعاني وعرضها عليك، وأنا رجل مولع بالفصاحة والشعر واللفظ العذب والمعنى الرقيق منذ الصغر.

- وكنت أجلس إليها فتحدثني ..

- فيخيل إلي أن الجبال تكاد تؤوب معها لحلاوة لفظها ..

- ولكم تراقصت طربا لبعض كلامها ..

- ولكم إقشعر جلدي لمعنى ساقته أو مثالا ضربته ..

مع عقل راجح ومروءة كاملة، ولئن ندمت في حياتي على شيء فهو عدم توثيقي لذلك الكلام منها.

وكان مما سمعته قولها [كل ما جاء سيل قالوا العيب في "وادي العلي"] وهو مثل سائر عندنا يضرب فيمن يجعله الناس سبب لمصائب هو برئ منها .

وأنا اردد هذا المثل كثيرا في دفع التهم عن نفسي كبيرها وصغيرها -وما أكثرها فإني إمرؤ كثير الشغب-، فما زلت ادفع بهذا المثل عن نفسي حتى سميت (وادي العَلي)!.

وهذا الإسم حبيب إلى قلبي، قريب مني، يعرفني وأعرفه، ويألفني وآلفه، ويشبهني وأشبهه :

- ففيه من معاني الإتساع والتنوع ما يوافق نفسي "الشاعرة" التي طبعت على الملل، فيميتها أن تحصر في جانب واحد من جوانب الحياة دون غيره {ألم تر أنهم في كل "واد" يهيمون}.

- وفيه كذلك من معاني جريان السيول وتدفقها وإجتثاثها للأرض من تحتها مافي صدري من قوة الشعور وإندفاعه، فإني إمرء: أنطلق إنطلاقة سهم متى إنطلق لم يكبر في عينه شيء فيقطع سيره، وأندفع إلى الجمال إندفاع فراشة إلى النار وهي تعرف إحراقها ويدعوها إليها نورها، وتبكيني الكلمة لا يلقي صاحبها بالا او المشهد العابر لا يلتفت إليه أحد، ويسعدني الشيء القليل في عيون الناس، ويكبر في عيني المعروف مهما كان صغيرا -ولو شربة ماء-، وأضحك حتى استلقي على ظهري من مزاح يسير، وأتعلق بمن حولي تعلق الأم بولدها، وأتلذذ بكل تجربة جديدة أخوضها حتى ليخيل إلي أن نشوتي بذلك تفوق نشوة أصحاب العقاقير المخدرة بها؛ وكل ذلك لأن إحساسي بالأشياء قوي وإنفعالي بها عميق حتى كأن الناس ينظرون إلى الأشياء بأعين رؤوسهم وأنظر لها أنا بعين المجهر.
- ثم إنني أجد فيه -الوادي- من معاني الغموض والخفاء ما ينتظر أن يكشف عنه وتطأه أقدام البشر للمرة الأولى كالذي أجده في نفسي التي مازلت معها في رحلة إكتشاف مذ عرفتها.
- وأخيرا .. أجد في هذا الإسم من الإنتماء والحنين ما يذكرني في كل مرة بـ"الهوية" التي أنا جزء منها وهي جزء مني، و"الأرض" التي فارقتها فراق الروح للجسد فأنا أجول بعدها على هذه الأرض روح هائمة لا قرار لها إلى أن تفتح لها أبواب السماء فتلقي عنها أحمال السفر ويؤذن لها أن تعرج فيها.

هذا أنا، وهذه هي رحلتي .. [وادي العَلي] 🌹

2- لا شرقية ولا غربية (بداية الرحلة).

تعب شديد .. لا أدري إلى متى سيستمر هذا الحفر؟.

ولكني علمت منذ البداية أنني إن ضربت ضربتي الأولى في الأرض لأحفر طريق خروجي فلن يكون هناك مجال للتراجع فإما أن أنجح في نيل حريتي أو أفشل فأخسر الشيء الوحيد الذي أملكه .. حياتي!.

لم يكن ثم خيار بعد أن ألقت بي رياح الأقدار في محبسي هذا وغلّقت الأبواب لتتركني أعيش فيه حياة أشبه بالموت أو موتا أشبه بالحياة.

كان لا بد من المخاطرة إذ لم يكن لي مخرج غير هذا، فسواءً أكانت هذه الحفرة التي أحفرها ميلاد حياتي الجديدة أو قبري الذي لن أغادره أبدا؛ في الحالتين ستكون مخرجي الوحيد.

لا أعلم تحديدا كم مضى وأنا أحفر ففي حفرتي هذه لا ليل ولا نهار، ولا أسمع فيها سوى صوت أنفاسي المتثاقلة وأصوات الرمال والحجارة تحركها يدي بهدوء مخافة أن يشعر بذلك أحد.

مهلا يبدو أنني نجحت .. ها هو المخرج أخيرا !.

رفعت طرف رأسي لأنظر ما الذي يوجد في الخارج :-

"أنا لا أرى شيئا!! ، هل أصبت بالعمى لطول بقائي تحت الأرض؟، أم أنني خرجت من حفرتي الضيقة إلى أخرى واسعة؟، ما العمل لا بد أن أتصرف سريعا؟!".

في وسط دوامة التفكير هذه سمعت دويا عاليا إنقطعت معه أنفاسي وتوقفت ضربات قلبي :-

"لا مجال للعودة الآن .. سوف أركض إذن.

ولكن ما هذا أنا لا أستطيع الجري!، من الذي يمسك قدماي؟، مالذي يحدث هنا أنا لا أرى شيئا!!".

لم أتمالك نفسي وصرخت عاليا :-

"أفلتني يا هذا!.. من أنت؟.. ماذا تريد مني؟!"

فجأة أضاء المكان كله، وإتجه الضوء نحوي مباشرة، قد كنت عاجز عن الإبصار بسبب الظلام فأصبحت أشد عمى بسبب الضوء!.

يبدو أنها النهاية .. فلأغمض عيني وأستسلم لها إذن.

###

صباح جديد .. وشمس مشرقة .. وطيور تغرد.

كانت عيناني مثقلتان من شدة التعب، فتحتهما بصعوبة :-

"يبدو أنني ما زلت على قيد الحياة!، أين أنا؟، ألم أعد إلى الحبس مرة أخرى؟"

كان أول شيء رأيته هو السماء الصافية من فوقي تنظر إلي وهي تضحك، حركت رأسي قليلا لأنظر حولي، كان كل شيء يبدو جيدا: الطيور تغرد بسرور معلنه بداية يوم جديد، والأشجار تتمايل طربا مع أنغام الرياح لتنفض عن أوراقها بقايا الماء العالق بها من مطر الليلة الفائتة :-

"لحظة واحدة! الان فهمت كل شيء.

المطر .. نعم لقد كان المطر، هو الذي اكتشف محاولة هروبي البارحة وقرر ان يمازحني فصرخ برعده وفجأني ببرقه، يا إلهي كم كنت أحمق".

أغمضت عيني وضحكت على نفسي قليلا، ثم تذكرت :-

"قدماي! ، من الذي كان يمسكهما البارحة؟".

جلست سريعا لأنظر فيهما :-

"شيء غريب، كيف حدث ذلك؟".

كانت جذوري ممتدة في الأرض متشبثة بها، ونظرت الأشجار من حولي فكانت كلها كذلك :-

"هل معنى ذلك إنني لن أتمكن من الطيران؟، كنت أحسب الأشجار تطير!".

كل ما أتذكره أنني قفزت سابقا لأطير ولكن الرياح التي حملتني من فوق ظهر أمي ألقت بي بعيدا لأجد نفسي محبوسا أحفر طريقي للخروج، ثم ها أنا ذا أجدني الآن على رأس تل مشرف على هذا الوادي الكبير.

###

كان بجواري شجرة عجوز قد طالت بها الحياة حتى نَسِيَت كم من السنين قد عاشت، وكانت الطيور تدعوها **"رِفعَة"** لأنها مرتفعة على أعلى تل في الوادي.

مضت الأيام و **"رِفعَة"** ترعاني وتظلني من أشعة الشمس بأغصانها وتصد عني هبوب الرياح بجذعها حتى قوي عودي وإشتد، وكانت الطيور تأوي إليها كل مساء حاملة معها أخبار الوادي فتنقل لها ما رأته في طوله وعرضه.

وكنت أنا في كل يوم أرفع رأسي محاولا رؤية ما كانت تبصره هي وطيورها من هذا الوادي، فكانت تضحك وتقول :-

"ما زلت صغيرا، والعمر أمامك، وستنمو ويعلو رأسك حتى ترى الوادي بأكمله"

ولذلك سمتني [عَلي] ..

وفي أحد الأيام رفعت رأسي فإذا أنا أبصر طرفي الوادي، وإذا بقرية في أقصى يمينه وأخرى في أقصى شماله، فصرخت مسرورا :-

"أنظري يا رِفعه! ، هناك قريتان ،أنا أراهما الآن".

فضحكم وقالت :-

"ها قد كبرت وإنطلقت رحلتك في إستكشاف الحياة.

فإعلم يا بني أن الأرواح تنجذب إلى ما يشبهها: فأصحاب الأرواح الجميلة يبصرون الجمال في كل ما حولهم فإذا وقعت أعينهم على شيء أبصرت أجمل ما فيه؛ فكذلك يا بني فكن إن أردت السعادة في حياتك والإنتفاع بما فيها من أشخاص وأحداث، وليكن لك قلب كقلوب الأطفال يفرح بكل جميل وينسى سريعا كل قبيح، فإنهم بذلك كانوا أسعد الناس عيشا وأسرعهم تعلما .. هذه نصيحة العمر يا ولدي فإحفظها".

###

3- "الفن" و"الجمال".

ليلة مقمرة ..

ونسيم عليل يحمل معه أنفاس الزهور يداعب بها الأرواح، فتشعر معه بالخفة حتى تكاد تفارق أجساد أهلها لتحلق في سمائه.

ورجل مقبل من بعيد يسير في الوادي وحيدا واضعا عصاه على كتفه، مشى حتى وقف على صخرة أسفل التل وأسند إليها ظهره وجعل ينكث بعصاه الأرض، وقال بعد صمت طويل :-

"سلام عليها ما أحبت سلامنا

فإن كرهته فالسلام على أخرى"

ثم قام فذهب.

- **قالت رِفعَة:** أتدري من هذا؟
- **قلت:** لا.
- **قالت:** هذا عمر بن أبي ربيعة.
- **قلت:** أمن العشاق هو؟.
- **قالت:** هو أشقاهم!.
- **قلت:** وكيف ذلك؟
- **قالت:** إن الذي يعشق "إمرأة" يقتله حبها مرة واحدة فهو يتألم لها عمره كله، أما هذا الرجل فهو عاشق لـ"الجمال" له في كل يوم منه قتلة، وكأن الله كتب على قلبه الولوع بكل جميل ثم كتب على عينيه أن تبصر في كل شيء أجمل ما فيه فهو في شقاء أبد الدهر! ،ولقد خرج يوما مع صحبه إلى هذا الوادي فلاح لهم في سمائه برق فقال قائل منهم "تعالوا نصف البرق للنظر أينا أحسن شعرا؟"، فقال الأول:-

أرقت لبرق آخر الليل لامع
جرى من سناه ذو الربى فينابع

فأجابه الثاني:-

يضيء عضاه الشوك حتى كأنه
مصابيح أو فجر من الليل ساطع

فلما وصل القول إلى عمر بن أبي ربيعة قال:-

أيا رب لا آلو المودة جاهدا
لـ"أسماء" فإصنع بي الذي أنت صانع

ثم إلتفت إلى أصحابه وقال: مالي وللبرق؟!.

وهو على حاله التي رأيت يهيم في هذا الوادي ينشد الأشعار في حب "نُعم" وذكرى "سلمى" ويبكي "أسماء" ... الخ، في كل يوم له شأن يشقى به ويسعد.

وهو مع ذلك له زوجة لا يعدل بها نساء الدنيا جميعا لأنه يجد عندها ما يطلبه كل رجل من المرأة.

- قلت: وما هو الذي يطلبه الرجل من المرأة؟
- قالت: أمران :-

1- أن يكون عندها في سكون وراحة بعد شقاء اليوم وتعبه.

2- أن يكون عندها ملك في مملكته توقره وتحفظ قدره.

والرجل متى وجد ذلك من إمرأة أدخل حبها في قلبه وغلّق عليه الأبواب فلا يصل إليه أحد غيرها ما دام له نبض، وتكون كل النساء في عينيه عرائس دمى لا روح فيها وجمالهن عنده إنما هو كجمال لوحه صنعها رسام بارع فهو يبصر جمالها بعينيه وتنطق بذلك شفتيه إلا أن قلبه عنها محجوب فلا يحبها حب الإنسان للإنسان ولكن حب الإنسان للجمال سواء أتمثل هذا الجمال في صورة إمرأة حسناء أو زهرة فيحاء أو طير يطير أو قمر منير لا فرق عنده في ذلك كله.

والرجل يا بني "طائر" -ما دام رجلا- لا يقر له قرار ولا تملك منه المرأة غير قلبه إلا أنها متى ملكته ملكت من الرجل كل شيء.

والزوجة في عين الرجل منزلة بين "الأم" و "البنت" : فهو يبحث فيها عن عطف الأم على ولدها وسكونه إليها وراحته بين يديها، ويبحث فيها عن نظرة البنت لأبيها وإعجابها به وإكبارها له؛ فإذا كانت الزوجة له كذلك صارت (عشه) الذي لا يأوي إلا إليه وإن طوف بين الأشجار نهاره كله، وإن لم تكن له كذلك صارت (قفصه) الذي يتحين الفرصة ليفر منه ولا يعود إليه أبدا، ولهذا يسمي بعض الناس الزواج بـ[القفص الذهبي] ويسميه آخرون [عش الزوجية] كلٌ يصف حاله.

- قلت: هذا الذي يطلبه الرجل من المرأة، فما الذي تطلبه المرأة من الرجل؟
- قالت: أهون شيء! .. "لسانه" ، ألست ترى أن أجمل ما يقدمه الأب لإبنته الصغيرة هو قوله [تبدين جميلة الأليوم] ولو قيلت هذه الكلمة لصبي لما وزنت عنده شيئا في حين تملأ هذه الكلمة على الفتاة يومها كله سرورا ومحبة وهناءا.

وأين ستجد زوجة عمر بن أبي ربيعة لسانا أعذب من لسانه وهو سيد شعراء الغزل؟

والله يا بني لقد عشت طويلا فما رأت عيناي نفسا أشد طربا ولا قلبا أكمل حياة من هذا الرجل! ، ولهذا كلفت نفسه بكل جمال فإنطلق ينظم الأشعار يبوح بها للناس عن معاني الجمال في نفسه ويوقفهم منه على ما وقف عليه .. وهذه يا بني حقيقة [الفن]!.

فإن الفنان إمرء ذو قلب حي وروح جميلة تميل إلى ما يشبهها من معاني الحياة، فإذا جاءتها صبغتها بجمالها هي فيزيدها ذلك حسنا كما تزيد الشمس حديقة الأزهار حسنا بإشراقها عليها.

فـ"الفنان" هو الذي يأتي إلى معاني الوجود فيخرجها للناس لا على صورتها هي في نفسها ولكن على صورتها في نفسه هو، فكلما كانت روحه أجمل كانت هذه الصورة في أعين الناس أرق وأعذب.

ومن هنا كان الشذوذ في الفنون يكشف عن روح مشوهة عند صاحبه، ألا ترى العرب تنسب إلى الشياطين من الشعر قولهم :

وقبر حرب في مكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر

فإن هذا التنافر لا يليق إلا بنفس شيطانية!، ومثل هذا القبح تراه في كل الفنون من رسم وموسيقى وغيرها فإن شذاذها يعبرون بها عن قبح نفوسهم.

في الوقت الذي تجد فيه أصحاب الأرواح الجميلة حتى عند تناولهم لأقبح معاني الوجود يخرجونها في أبهى صورة! ، وذلك أنهم يلتقطون صورها من نفوسهم هم لا من واقعها هي، أما مرضى النفوس فإنهم تقبح منهم أجمل

المعاني وأعظمها جلالا فيفسدونها بإخراجها على صورتها في نفوسهم قبيحة ممسوخة شوهاء ثم لا يجدون لأنفسهم حيلة تستر سوأتهم سوى إدعاء "النخبوية" لفنونهم وأن لها أهلها المختصيب بها من دون الناس المبصرين فيها ما يعجز غيرهم عن إبصاره.
والفن يا بني أمر إنساني نابع من داخل النفس البشرية وليس هو شيء مكتسب من خارجها حتى تكون فيه نخبوية، بل الحكم في الفنون كلها لما هو مستقر في نفوس جميع البشر المحب منهم لهذا الفن والمبغض، لأن "الجودة" و "الجمال" شيء واحد في نفسه لا يتعدد ألست ترى أنك إذا أخذت طعاما جيدا وآخر رديء من صنف واحد ميزت بين جيده ورديئة وإن كنت لا تحبه!.
فالفن الصادق هو ما أبصر جماله كل إنسان، والفنان الحقيقي هو الشخص القادر على إيصال معاني الجمال التي في نفسه لكل أحد فكلما كان على ذلك أقدر كان فنه أعظم، وإلا فما الفرق بين العيي والبليغ؟ وما الفرق بين الرسام البارع والصبي اللاعب؟ والصوت العذب الرائق والحمار الناهق؟!.
فـ"الفن" في حقيقته: ليس هو مجرد جمال المعنى في ذاته، ولا مجرد جمال التعبير عنه، وإنما هو القدرة على إيصال هذا الجمال للناس ونقله من نفس الفنان إلى نفوسهم وتقريبه إليها حتى يتوهمون لشدة قربه أن هذا الفن نابع من نفوسهم هم لا من نفس الفنان!، وهل فاق "المتنبي" شعراء عصره إلا بذلك؟ فإنه كما قيل (ينطق عما في نفوس الناس).
وللإنسان ثلاثة أنهر تغذي عقله (عينه) و (أذنه) و (قلبه)، ولذلك كانت العلوم عنده على ثلاثة أنواع :-
1- علوم تجريبية: تقوم على الإختبار والمراقبة، ولا تصح إلا بذلك.
2- علوم خبرية: تقوم على النقل والرواية، وهذه عدم إختبار الإنسان لها لا يعني عدم صحتها فإن الحياة أكبر مما يشاهده الإنسان ويجربه.
3- علوم ذوقية: تقوم على الحس والشعور في قلب الإنسان، وكل "الفنون" من هذا النوع.
فأما [العلوم التجريبية] يشترك فيها كل كائن حي حتى البقر والغنم، وأما [العلوم الخبرية] فهي علوم الأذكياء المنتفعين بتجارب غيرهم الذين لم يقتصروا على ما يجربونه هم بأنفسهم فإرتقوا بذلك عن رتبة "الحيوانات" الى رتبة "العقلاء"، وأما [العلوم الذوقية] فهي التي تجعل الإنسان "إنسانا" فيرتقي بها من رتبة الذكاء الى رتبة الإنسانية ولولاها لكان مجرد آلة أو حاسوب.
فسلب الناس ذوقهم الفني وحصر ذلك في نخبة منهم هو في الحقيقة تجريد لهم عن انسانيتهم!،والإنسان له ان يستمتع بما شاء ولكن ليس له أبدا ان يسلب الناس إنسانيتهم لأنهم لا يلتذون بما يلتذ به ولا يتذوقون ما يتذوقة، و"المتعة" شيء و "الفن" شيء آخر.

وإلى هنا يا بني تنتهي هذه الرحلة فاهو الشتاء قادم فلتهيئ له نفسك.

بدأت الرياح تهب ..

وإشتد سواد الليل وإلتحفت نجومه بالغيوم ..

وهدأت الأصوات جميعا وعم السكون ..

وبدأت عيناي تثقلان ويملأني النعاس ..

لقد حان وقت السبات حتى ينقضي الشتاء وتشرق شمس ربيع جديد.

# # #

4- التاريخ والحضارة .

ضحكات تملأ الوادي .. طيور تقفز بين أشجاره تصدح بالتغاريد بأعلى صوتها .. وشمس دافئة تلين أغصاني.

فتحت عين ببطئ لأجد الأرض من حولي قد ملئت أزهارا، كل واحدة منهن قد نشرت أوراقها ورفعت رأسها تستعلي بجمالها على صويحباتها، وتنفخ عطرها في وجه كل رائح وغادي تتغاوى إليه ترجو أن يسعدها لحظ فتكون التي يختارها ليبوح لها بإسم محبوبه ويبثها وجده ولوعته ثم يبعثها إليه حاملة سره أمينة عليه لتلقي نفسها بين يديه تهمس بما سمعته في أذنيه وتملأ صدره بعطر اشواق حبيبه إليه، ثم تفارق حياتها بين الدموع والقبلات شهيدة حب تناجي ربها (يا ودود، يا ودود، رحماك بهذه القلوب)!.

سرح الخاطر قليلا ثم إنتبهت وإذا **"رِفعَة"** تنظر إلي وتملأ الصباح راحةً وسرورا بوجهها الباسم:-

- صباح الخير يا خالة.
- صباح الخير يا بني.
- ما أجمل هذا الربيع، انظري إلى الطيور محلقة في كل إتجاه غير مصدقة أن واديها بهذا الجمال، وكأنهم لم يروا الربيع من قبل.
- صدقت، وهاهي تغني منذ الصباح تصيح بأعلى صوتها فرحا بالربيع فقد كان الشتاء هذه المرة طويلا، ولهذا خرج أهل القريتين جميعا إلى الوادي كما ترى.

نظرت فإذا الناس كأسراب النمل قد ركبوا من الوادي كل سهل وجبل، يجلس بعضهم إلى بعض فيتحادثون ويتمازحون وتعلو ضحكاتهم حتى لتظن وأنت تنظر إليهم أن الله لم يخلق حزنا قط وأن هذه القلوب لا تعرف سوى المرح والأنس بالناس ثم المرح معهم مرة أخرى!.

فتراهم يلقي بعضهم الى بعض التحيات، ويتبادلون البسمات، ويتهادون الحلويات، وكأن الدنيا عرس كبير كل إمرأة فيه عروس وكل رجل فيه عريس.

وكان الوادي قد تزين لهم بالربيع ليملك عليهم قلوبهم، فلما جاءوه إذا هم زينته وطعمه ولونه ورائحته! ، كأنه كان قبلهم ميتا فأحييوه فهو يحبهم أشد من حبهم له ويسر بهم أشد من سرورهم هم به.

بقيت أقلب عيني في الوادي وأهله، فلمحت رجلا جالسا الى شجرة مسندا ظهره إليها وحوله رجال بأيديهم الدفات والأقلام، إذا تكلم تكلم تمايلوا طربا ونطقت أعينهم سرورا وهم صامتون، يسارعون بكتابة كل كلمة يقولها كأنهم يقعون منه على كنز كبير أو يبوح لهم بسر خطير، حاولت إلتقاط شيء مما يقول ولكن كان المجلس بعيد مني وضحكان الناس ولعبهم يملأ أذني، تكلم الرجل ول يكثر ثم قام وقام تلاميذه معه كأنه بدر قد إلتفّت النجوم حوله.

بت تلك الليلة من كسر النفس حزين :-

"ترى ماذا كان يقول ذاك الرجل لينشغل تلاميذه به عن كل لعب ومرح وجمال في هذا الوادي فهم لا ينظرون إلا إليه؟، ومم كانت رؤوسهم تتمايل طربا وتنتشي قلوبهم لذة تفوق سعادة كل من كان بالوادي؟، ماذا اذا لم يعد الرجل مرة أخرى ففاتتني هذه اللذة ولم أقف على سرها؟!، أي حسرة تلك ...".

غفت عيني بين سؤالات وأفكار تذهب وتجيء لأستيقظ في الصباح فزِعا أنظر يمنة ويسرة عسى أن ألمح ذاك الرجل في الوادي سائرا في بعض طرقاته أو جالسا مع تلاميذه تحت إحدى شجراته .. ولكن لا أثر للقوم.

بقيت في قلبي غصة من فوات مجلسه ونعيمه لا أملك سوى أن أتلهى عنها بأحداث الوادي وأخباره وتتبع محاسنه وطرائف زواره.

ثم بعد أيام وأنا غافل إذ بالرجل سائر في الطريق يحمل معه كتابه وخلفه تلاميذه كل منهم قد هيأ أوراقه وأقلامه، فكدت من فرحي أسير إليه لولا قيدي الذي أنا فيه!، فكان لا بد لي من حيلة آمن بها فوات مجلسه هذه المرة، فنشرت أغصاني ومددت ظلي لأزين له ولطلابه الجلوس قربي، وسألت الطيور من حولي أن تصيح بالتغاريد متى رأت الرجل قد إقترب لينتبه إلي ويرى ما قد هيأته له، فلما رأى وفور الظل وإرتفاع التل طابت به نفسه فأقبل حتى جلس إلي وأسند ظهره علي.

فلما إستقر به وبتلاميذه المجلس إفتتح الكلام قائلا :-

- إعلموا أن قدرة الإنسان على فهم الحياة تحددها (سعة خياله)! ، والخيال وإن كان في الأصل غريزة إنسانية تولد مع الطفل حين يولد ولولاها لما إستطاع التعلم وفهم العالم من حوله، إلا أن هذه الغريزة تتحكم فيها أمور تؤثر عليها ضيقا وإتساعا:

 1- كبيئة الإنسان فمن عاش في بيئة معزولة محدودة ضاق خياله فلم يعد يتصور العالم أوسع منها.

 2- أو بعض العلوم والمعارف المكتسبة التي تقيد العقل بقوانين يعمل بها وينظر من خلالها ولا يتصور شيئا خارجا عن إطارها.

 3- او العرق الذي ينحدر منه الإنسان فإن الشعوب بفطرتها تتفاوت في سعة خيالها: فـ"أمم الشرق" عموما أوسع خيالا ولذلك كانت أقدر على الفن والجمال، و"أمم الغرب" عموما أضيق خيالا ولذلك كانوا أبرع في العلوم المادية لأن طبيعتها محدودة وقوانينها ثابتة، و"العرب" و"الفرس" وسط بين الشرق والغرب ولذلك كانوا أعدل الأمم أمزجة وأصحها عقولا فخيالهم لا يطغى حتى يخرجهم إلى نار الخرافة ولا يضيق حتى يحصرهم في جليد الماديات بل يجمعون بين الأمرين ويبصرون العالم بكلتا العينين.

ومن هنا نرى العرب في تاريخهم حين دخلوا المشرق -خورسان- نشروا فيه (العلوم) ، وحين دخلوا المغرب -الأندلس- أحيوا فيه (الفنون)، فكملوا بذلك نقص كل أمة وقووا جوانب ضعفها.

ثم هم أنفسهم حين دخلوا على هذه الأمم و وجدوا عندها ثقافاتها وعلومها وفنونها الخاصة بها تعاملوا مع ذلك بأمور ثلاثة :-

الأول/ فهموها كما هي في نفسها لا كما يتصورونها هم مسبقا من خلال ثقافتهم، فكانوا ينظرون إلى كل ثقافة وعلم وفن بعين أهله.

الثاني/ أخذوا منها أفضل ما فيها فمزجوه بثقافتهم وعلومهم وفنونهم.

الثالث/ نقدوها -تصويبا وتخطئة- من خلالها هي نفسها أولا ولم ينطلقوا إليها إبتداءا من خارجها.

ففي باب **(الفن والجمال)** مثلا أخذوا من فنون <u>أمم الشرق</u> "الموسيقى" ومزجوها بأشعارهم فأخرجوا للبشرية مثل كتاب [الأغاني] لأبي الفرج الأصفهاني، وأخذوا من "أدبهم" فن القصة ومزجوه بثقافتهم وتراثهم فأخرجوا للناس مثل كتاب [ألف ليلة وليلة] الذي هو أول عمل أدبي مشترك بين العرب وغيرهم من الأمم.

ومن فنون <u>أمم الغرب</u> أخذوا فن "العمارة" فمزجوه بثقافتهم وأذواقهم لينتجوا للبشرية تحف العمران التي لم يرى الناس مثلها من قبل.

وبهذا التمازج الحضاري والقدرة على إبصار تميز كل أمة والإعتراف بفضلها في مجالها وتعلمه منها إستطاع العرب أن يطوروا كل فن دخلوا فيه ويبلغوا به مالم يبلغه به أهله!.

وفي **(الفلسفات والعلوم)** أخذوا من فلاسفة <u>الشرق</u> أحسن ما عندهم من "السلوك" وأدخلوه في منظومتهم الإسلامية ينتجوا بهذا التمازج [علم التصوف] الذي فيه تزكية الروح.

وأخذوا من فلاسفة <u>الغرب</u> أحسن ما عندهم من "قواعد المنطق" فمزجوه بمنظومتهم المعرفية الإسلامية لينتجوا للناس [علم الأصول] الذي فيه تزكية للعقول.

وصوبوا أخطاء الفريقين -فلاسفة الشرق والغرب- من خلال منظوماتهم الفلسفية أولا فنقدوها من داخلها كما يفعل أهلها، مستعينين في ذلك بسعة خيالهم ودقة عقولهم وصحة أذواقهم ونور وحيهم.

فأظهر العرب بذلك حقيقة كون العقول كـ"الأرحام" تلاقحها الأفكار والعلوم فإن قبلتها وإستقرت فيها وأدخلتها في منظومتها المعرفية أنشأتها بذلك خلقا جديدا يخدم حاجاتها ومشكلات زمانها.

وفي الجهة المقابلة نجد بعض الأمم في تاريخها حين تدخل إلى غيرها من الأمم تكتفي بتقديم علومها وفنونها وثقافاتها كما هي ولا تكاد تأخذ من فنون هذه الأمم وثقافاتها التي إختصت بها شيئا لأن ضيق خيالهم يمنعهم من روؤية الجمال والصواب المختلف عما يعرفونه، ولذلك تراهم عند نظرهم في ثقافات الأمم والشعوب وفنونهم وعلومهم إنما ينظرون إليها بأعين ثقافتهم هم لا بأعين أهل هذه الثقافات فلا تبصر أعينهم منها غير مفهومهم هم الثقافي والمعرفي أو ما شابهه أو ما قاربه وأما ما سوى ذلك فهم عاجزون عن الإنتفاع به وإدخاله إلى ثقافتهم.

ولذلك ترى "إحترام الثقافات" عند البعض هو مجرد ترك الإساءة إليها وتقبل وجودها عند أهلها محصورة فيهم معزولة عن غيرهم .. فهو إحترام بارد باهت لا روح فيه.

أما عند العرب فالأمر أكبر من ذلك فإن "إحترام الثقافات" عندهم هو: إبصار جمالها، والإعتراف بتفوقها في بابها الذي أبدعت فيه، وتعلمه منها لتكمل بذلك نقصك وتزيد جمال فنونك وإبداع معارفك وعلومك، والمساهمة بهذا المزج في تطوير هذه الثقافات عند أهلها فتفيدهم كما إستفدت منهم .. فإحترام الثقافات عن العرب هو إحترام "علمي" لا مجرد إحترام "عاطفي"!.

وهذا هو المفهوم الحقيقي الواسع لـ[الإنسانية] الذي يعني: التواصل، والتشارك، والتبادل الثقافي والمعرفي، لا مجرد الإكتفاء بتقبل الوجود المعزول المنفصل الذي يكتفى بالنظر إليه من بعيد على طريقة المتاحف، فكلما كان "تفاعل" الإنسان مع الثقافات الأخرى أكبر كان أرقى إنسانية وأحيى عقلا وأوسع نفسا.
ومن هنا جاءت كلمة العرب الخالدة في سماء "العلم" و "الفن" و "الجمال" [كن كالنحلة ولا تكن كالذبابة]، فإن (النحلة) أينما وضعتها بحثت عن الأزهار وتتبعتها ولم تعبأ بغيرها ولم تنشغل به عنها، أما (الذبابة) فأينما وضعتها بحثت في المكان عن أقذر ما فيه ولم تبصر عينها غيره ولم تنادي في الناس إلا عليه ولم تحفل إلا به.
فمن إعتاد عقله تتبع الجمال والبحث عنه في كل بستان من بساتين الأمم فهو نحلة توشك أن تنتج عسلا إستخلصته من مختلف الأزهار والبساتين ومزجته بثقافتها التي تعرف جمالها وجلالها ليلتذ به الشارب ويستشفي به المريض، فهي تحوم يومها كله ثم لا تأوي أخيرا إلا إلى ثقافة أمتها قد حملت في جوفها أطيب ما وقعت عليه عند غيرها لتخدم به ثقافتها وتعمرها لا لتهدمها او تهجرها.
فهذا "القانون" هو كالشمس وفي سماء العلم والثقافة والفن والجمال، ينير الطريق للعقول ويذكرها في كل بستان تنزله من بساتين الأمم أن تكون كالنحلة تبحث عن النفع والجمال، لا كالذبابة التي لا تزال تتبع الأخطاء والعيوب حتى يصبح لها (عقل قمامي) يجمع زبالات البشر كلها فما من قذارة أو عيب عند أمة إلا وهي تعرفها أما الخير والعلم والجمال فلا تعرف عنه شيئا.
والميزان الفاصل بين "الإحترام العاطفي" للثقافات و "الإحترام العلمي" ه أن تسأل نفسك في كل مرة 7 900 وعلومها : ماذا يمكن ان استفيده منهم؟ ما هو الشيء الذي لا تضيع فيه وأنا لا أملكه أو هو عندي ضعيف؟ ما هو وجه الصواب في هذه الفكرة وما أحسن معانيها؟.
فإنك متى أجبن على ذلك نجوت من كونك ذبابة تحوم في بستان هذه الأمة، والبشر ليسوا من الحمق والسفاهة التي تجعلهم يختارون في ثقافاتهم الأشياء التافهة التي لا معنى لها والأفكار الباطلة المحضة التي لا شائبة حق فيها ولا جوانب صحة أو جمال لها فكما لك عقل للناس عقول فلا تحقرن من تقافات الأمم وعلومهم وفنونهم شيئا ولا ترى فيه حكمة مهما إختلفت معه أو إتفقت فقد جعل الله لكل شيء قدرا فكن النحلة التي تنزل بستانهم ولا تكن الأخرى .. وإعلم الخطأ لا يعجز أحد عن رده لكن العظمة والجلالة في القدرة على إلتقاط الأزهار ولو أحاطتها الأشواك من كل إتجاه، ولا يتأتى ذلك إلا بسعة الخيال التي تمكن صاحبها من الإبصار بعين غيره ليفهم وجهة نظره بل ويستشعرها بنفسه كما هي في نفس صاحبها .. عندها فقط يكون قادرا على نقدها وتقييمها والإنتفاع بها.
وسعة الخيال هذه هي التي أنتجت عند العربي فن [الشعر] الذي هو أشرف فنونهم وأصح علومهم، وهو عند العرب ليس مجرد تزويق الكلمات وتفخيم العبارات كما تفعل الأمم ضعيفة الحس لتعوض عن بلادة حسها وضعف شعورها، بل الشعر عند العربي هو الغوص في النفوس لإستخراج أعمق مشاعرها ثم صياغته بأجمل عبارة وأقربها لإيصال المعنى، ومن هنا سمت العرب الشاعر "شاعرا" لانه يشعر بما في النفوس والضمائر ثم يعبر عنه، وهذا سر لطيف لا ينتبه له الكثيرون نتناوله بإذن الله في مجلس قادم.

ثم أغلق كتابه وقام، وقام تلاميذه معه ..

سمعت هذا الكلام وكأن قائلا قال لعيناي (أبصري!) فأبصرت بعد أن لم تكن ترى شيئا، وهكذا العقول المضيئة كلامها يشرق في النفوس فيخلق لها بصرا جديدا.

ومضى ذلك الأسبوع وأنا فيه بين ترقب للمجلس القادم وتفكر في المجلس الماضي.

###

وفي اليوم المرتقب حضر الأستاذ وجلس في مجلسه وفتح كتابه بين يديه ثم رفع صوته وقال :-

- إعلموا أن "العرب" إنما سموا عربا لكمال إعرابهم عما في النفوس وإظهار كوامنها وكشف خفاياها لتشرق معانيها في دنيا الناس ويبصرها كل أحد، وهل كان الملوك يجزلون العطاء لكل شاعر إلا لأنه يبين عما في نفوس

هؤلاء الملوك من مشاعر العزة والعظمة التي لم تكن تجد لها مخرجا حتى إستلها الشاعر بشعره ثم قدمها إليهم قائلا (هذه بضاعتكم ردت إليكم)، فيجزلون عطاءه لا إكراما له ولكن إكراما لمعاني نفوسهم فعطاءهم له على قدره هو عندهم ولكن على قدر نفوسهم عندهم.

وهل القصور الشامخة والجيوش الجرارة والمراكب الفارهة والخدم والحشم إلا صورة من صور تعبير هؤلاء الملوك عما يجدونه من ذلك في نفوسهم، إلا أن هذه الصورة لا تزال مهما عظمت قاصرة في أعينهم عن رتبتهم عند أنفسهم عاجزة عن الإبانة عن معاني قلوبهم، حتى إذا دخل عليهم الشاعر حصونهم دخول الفاتحين وكان قبل ذلك قد تسلل الى نفوسهم وسرق أشرف معانيها فنظمها في أبيات تنفس عن قلوبهم وتسكن ثورتها وتبرد غليان الدم في عروقهم وتعطيها نشوتها فيكادون من الطرب لها والفرح بها يعطونه الأرض ومن عليها إذ ليس شيء من ذلك أثمن في نفوسهم من معانيها، وهم في ذلك كأصحاب العقاقير المخدرة الذين يبذلون لها الغالي والنفيس وتكون في أعينهم أغلى من الذهب والفضة إذ هم لا ينظرون إلى قيمتها هي في نفسها ولكن إلى قيمة الشعور الذي تهبه لهم وتملأ به نفوسهم بعد أن طال بحثهم عنه وعناءهم له فلم يجدوه في غيرها فهم لا يشترون العقاقير ولكن يشترون شعورهم بأنفسهم.

والعرب سمت "الشاعر" شاعرا لشعوره بخبايا النفوس وقدرته على إستخراجها بشعره ولذلك كانوا يعدون الشعر نوع من السحر والكهانة، وشعراء العرب لما فرغوا في شعرهم من الإبانة عن النفس البشرية وإستوعبوا أحوالها عشقا ورثاءا ومدحا وهجاءا وغير ذلك من صنوف شعرهم إنتقلوا إلى نفوس الحيوان فوصفوا الناقة والفرس والذئب والطير والحية والسبع! ، ألم تر إلى بشر بن عوانه وهو يصف لقاءه بالأسد ويبين عنه أبلغ مما يُبِينُ هو عن نفسه فيقول :

أَفاطِمَ لو شَهِدتِ ببطن خَبتٍ
وقد لاقى الـهِزَبرُ أخاكِ بِشرا

إذن لرأيتِ ليثاً رامَ ليثاً
هِزَبراً أَغلباً يبغي هِزَبرا

تَبَهنَسَ إذ تقاعسَ عنه مُهري
مُحاذَرَةً فقلتُ عُقِرتَ مُهرا

أَنِل قَدَميَّ ظهرَ الأَرض إنِّي
وجدتُ الأَرضَ أَثبَتَ منكَ ظَهرا

وقلتُ له وقد أبدى نِصالاً
مُحدَّدةً ووجهاً مُكفَهِرّا

يُدِلُّ بِمِخلَبٍ وبحدِّ نابٍ
وباللَّحَظاتِ تَحسَبُهُنَّ جَمرا

وفي يُمنايَ ماضي الحدِّ أَبقى
بمضربه قِراعُ الخَطبِ إثرا

أَلَم يَبلُغكَ ما فعلت ظُباهُ
بكاظمةٍ غداةَ لَقِيتُ عَمرا

وقلبي مثلُ قلبكَ لستُ أَخشى
مُصاولةً ولستُ أَخاف ذُعرا

وأَنتَ ترومُ للأشبالِ قُوتاً
ومُطَّلَبي لبنتِ العمِّ مَهرا

ففيمَ تَرومُ مثلي أَن يُوَلّي
ويتركَ في يديكَ النفسَ قَسرا

نَصَحتُكَ فالتمس يا ليثُ غيري
طعاماً إِنَّ لحمي كان مُرّا

فلمّا ظنَّ أَنّ الغشَّ نُصحي
وخالَفَني كأنّي قلتُ هُجرا

مشى ومَشَيتُ من أَسَدَينِ راما
مَرَاماً كان إذ طَلَبَاهُ وَعرا

يُكفكِفُ غِيلةً إحدى يديه
ويبسُط للوثوبِ عَلَيَّ أُخرى

هَزَزتُ له الحُسامَ فَخِلتُ أَنّي
شققتُ به لدى الظلماء فَجرا

وَجُدتُ له بطائشةٍ رآها
لمن كَذَبَتهُ ما مَنَّتهُ غَدرا

بضربةِ فَيصَلٍ تركتهُ شَفعاً
وكان كأَنَّهُ الجُلمودُ وِترا

فَخَرَّ مُضَرَّجاً بدمٍ كأنّي
هَدَمتُ به بِناءً مُشمَخِرّا

وقلتُ له يَعِزُّ عليَّ أَنّي

ولكن رُمتَ شيئاً لم يَرُمهُ

قتلتُ مُناسِبي جَلَداً وَقَهرا

تُحاولُ أَن تُعَلِّمني فِراراً

سِواكَ فلم أُطِق يا ليثُ صبرا

فلا تَبعد لقد لاقيتَ حُرّاً

لَعَمرُ أبي لقد حاولتَ نُكرا

يُحاذِرُ أن يُعابَ فَمُتَّ حُرّا

وهذا إمرؤ القيس يحدث عن ذئب لقيه فيبين عنه ويترجم معاني عواءه :

ومَاءٍ كَلَونِ البَوْلِ قَدْ عَادَ آجِنًا
قِلِيلٍ به الأصواتُ في كَلإٍ مَحْلِ
لَقِيتُ عليه الذِّئْبُ يَعْوِي كأنَّهُ
خَلِيعٌ خلا مِن كلِّ مَالٍ ومِن أَهْلِ
فقلتُ له يا ذِئْبُ هَلْ لك في أَخٍ
يُوَاسِي بلا أُثْرَى عليكَ ولا بُخْلِ
فقال هَدَاكَ اللهُ إنَّك إنَّما
دَعَوتَ لِمَا لَمْ يَأْتِهِ سَبْعٌ قَبْلِي
فَلَسْتُ بِآتِيهِ ولا أَسْتَطِيعُهُ
وَلاكِ اسْقِنِي إنْ كانَ مَاؤُك ذا فَضْلِ
فَقَلْتُ عليكَ الحوضَ إنِّي تَرَكْتُهُ
وفي صَفْوِهِ فَضْلُ القَلُوصِ مِن السَّجْلِ
فَطَرَّبَ يَسْتَعْوِي ذِئَابًا كَثِيرَةً
وَعَدَّيْتُ كُلٌّ مِن هَوَاهُ على شُغْلِ

بل إن العرب جاوزوا ذلك وذهبوا إلى الحجارة يتكلمون بلسانها ويبينون عنها فإستنطقوا الطلول والجبال والقرى والأودية بل والأرض والسماء فوصفوا أحوالها مع أهلها بما تعجز هي عن وصفه لو كان لها لسان ينطق!، وحتى "الأشجار" ذكرتها العرب ..

فلما سمعت ذلك منه إهتز جذعي وانتفضت أغصاني طربا وسرورا، فجفل الناس وسكت الأستاذ حتى سكن مني الروع، ثم أراد أن يختم مجلسه فقال :-

- إعلموا أن لكل أمة من الأمم بابا من أبواب الحياة تميزت به وأبدعت فيه وفاقت غيرها، والأمم بعضها يكمل بعضا فكل منها يملأ جانبا من الحياة يعجز غيره عن ملئه فلا غنى للبشرية عن أمة من الأمم، وفي المجلس القادم نتناول ذلك بالحديث بإذن الله.

ثم أغلق كتابه وقام وقام تلاميذه معه، وبقيت أنا أسأل نفسي :

"أي شيء قال العرب عن الأشجار في شعرها؟".

بقيت كلمات الأستاذ تتردد في نفسي أياما فيزيدها التكرار رسوخا وعمقا، لتفتح في ذهني كل كلمة منها بابا من أبواب الحكمة، ويتولد من المعنى الواحد ألف معنى من معاني الحياة، وهذا هو شأن "الكلمة" في النفس الحية التي لا تلتقطها على عجل كإلتقاط السراق واللصوص، ولكنها تطيل الوقوف عندها تقلب فيها البصر وتعمل الفكر كلما ظهر لها طرف من جمالها وجلالها إرتشفت منه رشفة يسيرة تذوق فيها معانيها ذوقا تلتذ بذلك مرة وتتداوى به أخرى فيرتوي القلب منها قبل العقل.

###

حضر الموعد وجاء الأستاذ وقال بعد أن اخذ مجلسه وفتح كتابه :-

- إن الحضارة الإنساني "كرة ثلج" تتدحرج بين الشعوب لتكبر، فتنميها كل أمة بشيء من خصائص ثقافتها وما إمتازت به من علوم في زمانها، حتى إذا أخذت الحضارة الإنسانية من أمة كفايتها إنتقلت إلى غيرها، لتتم بذلك المهمة الربانية للإنسان بعمارة الأرض وتقوم البشرية بدور الإستخلاف {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات}.

ومن قرأ التاريخ على هذا المعنى أبصر جماله الحقيقي، ورأى عجائب تدبير الله وحكمته البالغة في تدويل الأيام بين الأمم.

والحضارة لا تنشئها أمة من العدم وإنما هي جهود متراكمة وأعمار متتابعة وأمم متلاحقة يزيد كل منها على من سبقه شيئا يسيرا، ثم يمضي ويخلفه غيره ليفعل مثل فعله، فتتراكم هذه الزيادات حتى تصبح كالجبل العظيم الشامخ، إلا أنه لولا تلك الزيادات الصغيرة من كل أمة من الأمم لما بلغت الإنسانية هذه القمم.

والبشر بعضهم يكمل بعضا، ولكل أمة منهم بابا من أبواب الحياة تميز فيه وأبدع وفاق غيره، وهذا التميز عند كل أمه يكون منشئه موافقة هذا الباب لطبائع هذه الأمة وأمزجتها التي جبلت عليها وخصائصها العرقية الثابتة التي لا يغيرها تقلب الأحوال والأزمان ولا تبدل الأفكار لأنها مركوزة في أعماق نفوس هذه الأمة ولذلك قالت العرب [العرق دساس]!.

والحياة واسعة متنوعة لا يمكن حصرها في جانب من جوانبها، ولما كانت كل أمة من الأمم مطبوعة على الإهتمام ببعض الجوانب دون غيرها كان من حكمة الله أن جعل بين الأمم الإختلاف والتنازع لتدور عجلة الحياة ولولا ذلك لفسدت الأرض ومن عليها، وكان أعظم محرك لعجلة الحضارة الإنسانية عبر تاريخ البشرية هو "الأديان"، فالجاهل يظن الأديان كانت سبب فساد وشر والعاقل يعلم أنها كانت الدافع الأكبر للإنسانية للتقدم العلمي والصناعي والملهم الأعظم للفن والإبداع والجمال في مختلف الميادين من رسم ونحت وعمارة وأدب وشعر وقصص ورقي في السلوك والمظهر بل وحتى في الطهو!.

والدين يوقظ الجانب الروحي للإنسان، وينهض بعقله ليتجاوز عالم المحسوسات إلى عالم الخيال ليسبح فيه بفكره ثم يلتقط منه الجواهر التي يزين بها حياته، والإنسان كائن ذو شقين "جسدي" و "روحي" فإذا فقد أحد الأمرين لم يعد إنسانا، والجانب الروحي تغذيه أمور عدة أعظمها الدين ثم الفن والأدب والجمال والأخلاق، ولما كان الدين هو أعظمها كانت كل الجوانب الأخرى تستقي منه وتنمو به وتزداد جمالا وجلالا.

والأساطير الوثنية القديمة كانت في حقيقتها وسيلة من وسائل التعبير الفني، وذلك أن القدماء لما كانوا أقدر على رؤية الجمال في كل ما حولهم وكانت أعلى درجات الحسن والكمال التي يتصورها العقل البشري هي صورة "الإله" جعل القدماء لكل شيء إلها ليلفتوا النظر إلى الجانب الجمالي فيه، فـ"الآلهة" هنا ليست مرادة لذاتها وإنما المراد التعبير بها عن الجمال والعظمة التي يشعر بها الإنسان تجاه قضية من القضايا أو معنى من المعاني، وهو عين ما يفعله الناس اليوم حين يخترعون شخصيات "الأبطال" ليرمزوا بها إلى معنى من المعاني فيكون مجرد ذكر إسم هذه الشخصية مصورا لهذه المعاني في نفوس السامعين.

والقصد أن لكل زمان وسائله في التعبير عن المشاعر والقضايا، ولما كانت أكبر القضايا الإجتماعية عند القبائل العربية هي "الأخلاق" و "القوميات" كانت أصنامهم في الغالب تعبر عنها، وهذا يكشف لك حقيقة كون البشر ليسوا من البلاهة التي تجعلهم يعظمون الأساطير الخاوية التي لا معنى لها، وأن كل كلمة في الوجود مهما كانت منكرة فلها وجه من الصحة والجمال يمكن أن يلتمس، فوراء كل كلمة حكمة وإن بدت في أول وهلة شديدة البعد والغرابة، والجاهل مع هذا الجمال على أمرين :

- إنكاره بالكلية وإغماض العين عن إبصاره.
- أو قبوله في سياقه الخاطئ وشرب عسله ممزوج بسمه.

أما العاقل الحكيم فهو الذي يميز بين الزهر والشوك ثم يعزل الزهر ليضعه في سياق صحيح يظهر جماله ونفعه تاركا قبحه وضره، ألست ترى أن الله عز وجل صحح للمشركين العرب مشكلة إجتماعية كبرى من خلال عقيدة هو يبطلها في نفسها فقال {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كضيم} فلم يمنع شناعة هذا القول وشدة خطئه من إستخراج حكمة منة تصلح القلوب والعقول وتوظفه في معنى من معاني الحق، وهذا أمر تسجد العقول لعظمته وتعرف به قدر هذا القرآن وعظمته وبلاغة حكمته.

وما من أسطورة قديمة إلا وفي الناس اليوم ما يقابلهاقفي معناها ولكن بصورة توافق أسلوب العصر والمقارنة تكشق عن الأمر، وبهذه الطريقة يقرأ التاريخ ويعرف جماله ويستعان به على فهم الإنسان والكشف عن أسراره، أما التصورات الطفولية عن التاريخ فإنها تفسد معانيه وتبطل حكته، وكل من لم يرى الحكمة والجمال في حدث من أحداث التاريخ فهو الذي لم يفهمه، وما من شيء أضر على التاريخ من أن يقرأ بعين مغرورة: تتوهم أن عقل الإنسان اليوم ليس هو عقله بالأمس، وأن تركيبه النفسي اليوم ليس هو نفسه الذي كان عليه منذ آلاف السنين، وأن الإنسان القديم إنما كان أشبه بالمجنون في فكره وعمله وإختياراته .. والحقيقة أن هذه النظرة للتاريخ هي الجنون بعينه.

فكن على يقين أن أشد الخرافات غرابة في التاريخ تخفي وراءها أسرارا كبارا عن الإنسان والحياة، والكشف عنها يكون بسؤالها سؤال الحكيم (لماذا آمن الناس بك؟) لا سؤال المغرور (كيف آمن الناس بك؟)، فتنظر إليها لتعتبر وتتعلم لا لتستعلي على أهلها وتحكم، عندها فقط ستكون قادرا على تقديم البديل لها الذي تراه صوابا.
والله عز وجل لا يقدر شرا محضا، فإن هذه الأديان الباطلة وإن كان في ظاهرها الشر إلا أنها كان لها دورها في مسيرة الخير فس الحضارة الإنسانية، فلولا قصر فرعون لما تربى موسى على القيادة ليحرر بني إسرائيل من يد عدوهم، ولولا رمي يوسف في الجب لما صار عزيز مصر، ولذلك كان القدر هو سر الله في الخلق، ولا ينفع بالتاريخ إلا من جعل همه عند قراءته أحد أمرين :
1- النظر إلى تدبير الله في كونه، وخفي لطفه في خلقه، وإستعماله للمطيع والعاصي من حيث شعر أو لم يشعر.
2- معرفة الإنسان وطبائعه، والكشف عن خفايا النفوس وبواعث القلوب وخصائص الأمم وطبائع الشعوب.
أما النظر إلى ظواهر القصص دون بواطنها وإقتطاعا من سياقها النفسي و القدري فإنه يفسدها.
وإعلموا أن "الأفكار" إنما تموت بموت معانيها أو تحولها مع بقاء ألفاظها وصورها، وهذا باب من أبواب العلم عجيب نتناوله في مجلس قادم بإذن الله.

ثم أغلق كتابه وقام.

مر ذلك الأسبوع كلمح البصر، وكأن الزمان يسابق نفسه ليدرك هذه المجالس، فهو لا يقف إلا عندها، ولا يعد من عمره إلا ما كان من نصيبها.

ولكن في المجلس التالي لم يحضر الأستاذ ولا التلاميذ؟!

ولا في المجلس الذي بعده ..

ولا الذي بعده ..

وحل الشتاء لتنتهي به هذه الرحلة، وتبدأ بعده رحلة أخرى حاملة معها من معاني الحياة شيئا جديدا تزيده في النفوس.

###

٥- الإنسان بين الروح والمادة.

طبل وزمر ورقص ..

زغاريد تملأ الوادي ..

حفل كبير يرقص الجميع فيه كأنه عرس ملك أو ميلاد قائد عظيم.

أقبل الناس من كل مكان ليشهدوا الحفل، خلت البيوت وأغلقت الدكاكين، حتى الطيور تاراها ساكنة فلا تغريد ولا تحليق .. الكل يراقب هذا الحفل الكبير.

كأن الزمان قد توقف عن السير اليوم وأعطى الناس عطلة من أشغالهم وشؤون معاشهم، فلا شيء سوى الرقص والإحتفال والأنس بالناس.

فتحت عيني فنظرت فإذا الأصوات قادمة من القرية التي على يمين الوادي، وإذا أهلها مجتمعون قد ملأوا شوارعها، يجلسون إلى بعضهم يتضاحكون فلا يقيمهم من مجلسهم إلا الرقص، كل منهم قد لبس أجمل الثياب ووضع بين يديه ألذ الطعام وأشهى الشراب، لا تميز فيهم الغني من الفقير ولا الراعي لغنمه من الفارس الخطير، قد زالت عنهم الألقاب ورفعت بينهم الكلفة ولم يبق شيء يتنافسون به سوى المرح واللذة.

وأما الأطفال فلا تسأل عن سعادتهم وإبتهاجهم وإنبهارهم كأنهم لم يولدوا إلا اليوم فتراهم يركضون في كل إتجاه يتعرفون على قريتهم من جديد بعدما أصابها سحر هذا الإحتفال فأكسبها روحا غير روحها، وينظرون إلى أهلها قد لبست نفوسهم ثوب السرور قبل أن تلبسه أبدانهم فأنشأتهم خلقا جديدا عليه مهابة الجمال، حتى أنك لترى الطفل يستحي من والديه كأنه يراهما للمرة الأولى!.

إلتفت إلى القرية الأخرى فكأني كنت في حلم ثم إستيقظت ..

أهل التجارة في أسواقهم قائمون، وأهل الزراعة في الأرض يفلحون، مطارق وشرار، وآخر يضرب بفأسه الأشجار، أستاذ يعلم تلاميذه القراءة والحساب، دار تبنى وأخرى تهدم؛ وكأن الحياة غير الحياة والناس غير الناس؟!.

مضى اليوم على ذلك الحال حتى حل المساء ورجع الناس إلى بيوتهم وعم السكون.

بعد يومين أو ثلاثة تكرر المشهد نفسه كأنه فلم يعاد، أهل القرية اليمنى في لعبهم وإحتفالاتهم، وأهل القرية اليسرى في همومهم وأشغالهم، نظرت متعجبا:-

"ألا يطربون لتلك الأنغام والرقصات؟ .. ألا تهزهم أصوات التغاريد والهتافات؟ .. ما أثقل نفوسهم!".

كان ذلك أول نفوري من أهل تلك القرية الذين هم أسرى الشقاء ورفقاء الهموم، لا شأن لهم في الحياة إلا أعمالها من أجلها ينامون وعليها يستيقظون، متى أنهوا عمل اليوم فكروا في عمل الغد فهم أبدا يكدحون.

فلما رأيت الفرق بين أهل القريتين أصبحت أراقبهم حين يلتقي بعضهم ببعض في الوادي وهم يتنزهون لأرى كيف يصنع الفريقان، فزاد غيضي من أهل القرية اليسرى حين رأيتهم مستكبرين على أهل القرية الأخرى، فإذا مروا بهم لم ينظروا إليهم ولم يسلموا عليهم، وإذا جلس أهل القرية اليمنى في مكان زاحموهم فيه بلا إستئذان حتى يخرجوهم منه، وإذا لعب أطفالهم لم يشركوا الأطفال الآخرين نعهم وتركوهم قائمين ينظرون، حتى أنهم متى أنهم متى إلتفتوا تجاه أحد من أهل القرية اليمنى فر هاربا منهم حتى يختبئ خلف إحدى الأشجار.

وفي أحد الأيام خرج ثلاثة أطفال من القرية اليمنى إلى الوادي يلعبون، فرأوا جماعة من اليساريين قد هيأوا لهم مجلسا وإجتمع بعضهم إلى بعض يتحادثون، فقال الصبيان الثلاثة لبعضهم :-

"أيكم يدنو من هذا المجلس حتى يمس فراشه ثم يعود مسرعا قبل أن يحس به أحد؟".

فأخذوا يتحدى بعضهم بعضا فيرسلون أحدهم في كل مرة فإذا دنا وسمع أصوات القوم خاف ففر إلى صاحبيه وهما يضحكان، ثم يُقدِم الآخر فيزيد على صاحبه خطوات يسيرة ثم يفعل فعله ويفر عائدا إلى حيث يجلسان، فما زالا على ذلك حتى مس أحدهم بساط اليساريين و وقف عليه فلم يعبأوا به ولم يلتفت أحد منهم إليه، فدنا منهم ينظر إليهم ويسمع كلامهم حتى أنهم ليجلس بين الرجل وصاحبه فلا ينظرون إليه! وصاحبيه يضحكان من فعله، حتى قام وعاد إليهما.

- فقلت للشجرة العجوز: علام يفعل اليساريون ذلك مع اليمنيين؟
- قالت: يا بني إنهم لا يرونهم.
- ماذا؟ لا يرونهم!!.
- نعم، إن القرية اليمنى يسكنها الجن وأهل القرية اليسرى لا قدرة لهم على رؤيتهم أو سماعهم.

مرت بضعة أيام فإذا بقرية الجن تحتفل مجددا، فأخذت ارقب الإحتفال أبحث عن سببه أهو ملك يتزوج في كل أسبوع أو يولد له ولد؟، بقيت أراقب ساعة أو ساعتينحتى فتح باب أحد البيوت فخرج منه جماعة يحنلون رجلا كسيحا لا قدرة له على الحراك وإذا به بطل حفلهم!، فإلتفت إلى "رِفعَة" مندهشا لا أعرف ما أقول، فتبسمت وقالت: تعال لأحكي لك القصة:-

- هذه القرية من قرى الجن يقصدها السحرة من كل مكان يتعلمون من "غيلانها" الذين هم سحرة الجن، ويعقدون الأحلاف مع ملوكها، ويقصدها بعض الشعراء طالبا العون من أهلها.
قلت: فما قصة إحتفالهم بالمريض.

قالت: يا بني إن فرسان عالم الجن هم المرضى والعاجزون، ولذلك يحتفل أهل القرية بالعميان والمكاسيح والخرسان ويزفونهم إلى السحرة زف العرسان.
قلت: وما يصنع الساحر بجيش مافيه رجل قادر حمل سيف أو رمي سهم؟!
قالت: يا بني أقوى الشياطين متى سمع صوت الراقي إرتعدت أوصاله وألقى سيفه وفر هاربا من هول ما يرى ولم يعبأ بالساحر وسحره في سبيل نجاة نفسه، أما هؤلاء المرضى فإنهم متى وضعهم الساحر في مكان لم يمكنهم تركه حتى يخرجهم منه بنفسه، فليس أمامهم سوى الإصطبار على رقية الراقي أو الموت دون ما يريده الساحر، فهم أوفى جنوده له، فالأبكم منهم لو رقاه الراقي يومه كله لم ينطق بكلمة، والعاجز والأعمى تحملهم الشياطين إلى حيث يريد الساحر وتضعهم حيث أمر فلا يمكنهم ترك مكانهم هذا ولو أرادوا حتى يرسل لهم الساحر من يخرجهم منه.
قلت: فمن هم "الغيلان"؟.
قالت: هم طائفة من الجن تصعد إلى السماء لتتجسس على أهلها فتسرق من كلامهم أخبارا وعلوما في الطب والفلك والنبات وغيرها، ثم يدونون ذلك في كتب عندهم لا يطلع عليه إلا من أذنوا له، إلا أنهم مذ حجبوا عن السماء لم يعودوا قادرين على إكتساب جديد في علومهم هذه ولم يبق لهم منها سوى ما دونه أسلافهم في تلك الكتب التي لا توال تتناقص مع مرور الأيام وتنسى علومها بموت من كانوا يعرفونها، وبذلك أصبحت علوم السحر في كل جيل أضعف من الذي قبله.
قلت: ولم لم أر أحدا من القرية اليسرى يذهب إليهم ليتعلم منهم السحر كما يفعل السحرة من كل مكان؟.
قالت: إن أهل هذه القرية ظهرت فيهم الصناعات وعلومها فصارت شغلهم الشاغل، والصناعة كلما قويت أضعفت الجوانب الحسية للإنسان لأنها تأخذه عن الطبيعة والناس بل وحتى عن نفسه فيمسي غريبا عنها لا يعرفها ولا تعرفه ولا يألفها ولا تألفه ولا يحس بها ولا تحس به.
وهذا [الفصام النفسي] بين الروح والمادة ينشئ عند أصحابه صراعا دائما تتنوع صوره إلا أن حقيقته واحدة وهو توهم ضرورة الإختيار بين "العقل" و "النفس"، وكأنها طريقان منفصلان أو كأن الإنسان غر مركب من الأمرين فهو إما أن يحمل عقلا في رأسه أو قلبا في صدره ولا يمكنه الجمع بينهما، وهذا الوهم بالتعارض ليس سببه وجود تعارض حقيقي في الواقع ولكن وجوده داخل هذه النفوس المريضة بالفصام في إنسانيتها التي لا يحسن أصحابها إلا أن يكون واحدهم نصف إنسان:-
- له عقل متقد وعلوما كثيرة، وطول نظر في الماديات وتطويع لها ليستحوذ على خيرات الأرض ويضرب بأوتاده فيها ثم يرفع بصره إلى السماء طامع فيها، فإذا ما جئته لم تجد له قلبا يشعر ولا روح تبصر، فهو واقف في وسط عالمه المادي وقوف "مومياء الحقل" تحسبها الطيور إنسانا .. ولا روح فيها.
- أو يكون له حس مرهف وقلب نابض بالحياة، وروح سارحة تهيم بكل واد تكتشف بذلك نفسها وتكشف عن بعض أسرار كونها، إلا أنها لا عقل لها يمنعها من الركض خلف الأوهام وتقحم الخرافات.
والتحدي الكبير للإنسان هو قدرته على الجمع بين الأمرين بينهما لأن في كل جزء منهما جزء من الصواب، وكمال الإنسانية -في جميع أبواب الحياة- في القدرة على الجمع بين الأضداد والتوفيق بينهما فكلما كان الإنسان على ذلك أقدر كان أكمل إنسانية وحقق المثالية التي إختص بها جنسه دون سائر المخلوقات، فإذا فصم بين الأمرين وغلّب أحد شقيه على الآخر إنسلخ من بشرتيه وإنقلب إلى "نسناس" يشبه الناس وليس منهم.
قلت: وما "النسناس"؟!.
قالت: هو حيوان بائد كان يسكن بأرض اليمن على هيئة نصف إنسان له عين ويد ورجل واحدة ويتكلم كما يتكلم بني آدم وليس من الناس، فصار يضرب به المثل على إختلال الإنسانية ونقصها فيشبهون به كل من لم يستكمل بشريته وفقد بعض جوانبها.
وأهل هذه القرية شغلتهم [العلوم الحسية] عن [العلوم الحدسية] فصاروا على ما ترى "نسانيس" أشبه بالآلات التي يصنعونها، والحياة يا بني كما لها قانون طبيعي حسي فلها كذلك قانونها الحدسي الذي لا يدركه بليد الحس ولو أعمل عقله ألف عام ما لم يستشعره في أعماق نفسه ويتذوق حلاوته في سمعه وبصره، ولو كان الناس إنما يتفاضلون في علومهم بالعقل وحده دون الحس لما وجد فرق بين قصيدة الشاعر البليغ وحسابات الرياضي، ولكانت لوحات الخطاط البارع لا تختلف عن خرائط المهندس الصانع، ولما فضلت الملائكة الشياطين بشيء وهم مشتركون في علومهم مختلفون في إحساسهم بها!.
ولقد اتى إلى القرية اليسرى يوما رجلا أعمى يدعي أنه من أهل علم "الفراسة" وأنه يخبر عما يخفي الناس مقابل المال، فضحك منه أهل القرية وقالوا: رجل أعمى يحتال ليطلب رزقه فيبيع للناس الوهم ويمتهن الخرافة، فبلغ خبره الملك فأراد أن يمتحنه فدعاه إلى مأدبته، فلما حضر قال له الملك:
- إني حلمت البارحة حلما فإن كنت كما تزعم فأخبرني عنه؟
- فسأل الأعمى الجلوس معه على المائدة أن يصفوا له هيئة الملك حين كلمه؟

- فأخبروه أنه كان جالسا فرفع يده إلى جبهته فمسحها نزولا إلى عينيه.
- فقال: رأيت أيها الملك أنك صعدت إلى رأس جبل ثم نزلت منه إلى أرض فيها نبعان مالحان.
- فقال الملك متعجبا: صدقت!، وأراد أن يمتحنه الثانية ليتيقن منه فقال: قد سرق البارحة شيء أخبرنا عنه وعن مكانه؟
وأشار للجلوس أن لا يجيبوه بشيء إن هو سألهم.
- فلما رأى الأعمى الناس صامتون مد يده إلى المائدة فوقعت على إناء فيه تمر فقال: لؤلؤ وزبرجد وياقوت!.
- فصاح الناس: صدقت!!.
- قال الملك: فأخبرني أين أجدها؟.
- فسكن قليلا ثم قال: مخبأة في بئر.
- فأمر الملك جنوده أن يبحثوا في كل بئر في القرية، وقال للرجل الأعمى: إين صدقت فهي لك.
فبحثوا فوجدوها كما قال، فلما أحضروها قال الملك: لا أعطيها لك حتى تخبرني كيف عرفت؟.
- قال: إستجمعت حسي ثم مددت يدي فكان أول شيء لمسته "إناء تمر" والتمر أول ما يطلع يكون أبيضا ثم يخضر ثم يحمر فقلت لؤلؤ وزبرجد وياقوت، ثم سألتني عن مكانه فسمعت صوت شرب ماء فعلمت أنه في بئر.
- فأعطاه الملك ما وعده به وقال له: من أين لك هذا العلم؟.
- فقال: إذا إنطفأ نور البصر أضاءت البصيرة، وإذا ضعف الحس قوي الحدس، والمبصر لما كان إحساسه منصبا على ما يراه من ظواهر الأشياء قد إستفرغ فيها قوته عمي عن بواطنها .. أليس ربنا قد قال {إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}!.
- قال الملك: صدقت.
وأكرمه وأجزل له العطاء.

قالت رِفعَة: والآن يا بني فلتتهيأ للشتاء، فها هي شمس أخر تغيب، وها هم أهل القرية اليمنى يوقفون إحتفالاتهم ويسارعون إلى دوهم يحملون أطفالهم، وها هي القرية اليسرى تنهي أعمالها وتغلق أسواقها وتفرغ من أشغالها.

جاء الشتاء لترتاح معه الأبدان، وتسكن به الأرواح، ويجلس كل إمرء مع نفسه يداويها وتداويه .. إلى أن تشرق شمس نهار جديد ينطلق معه إنطلاقة جديدة في الحياة.

###

٦- الفلسفة والدين.

شم تطارد الليل لتمحو ظلامه، وتطفئ لمعان نجومه الزائف ..

صبح جديد يشرق على وجه الحياة ليزيل عنها قناع الليل الذي أطفأ حسنها وغطى بهجتها طوال فترة الشتاء ..

وهكذا الشمس والقمر كطفلين يلعبان بحصان خشبي، لا يصعد أحدهما على ظهره حتى يدفع الآخر ويسقطه عنه، والحصان في كل مرة يهتز لراكبه فيتوهم كل طفل منهما أنه إنما يفعل ذلك فرحا به وسرورا بإسقاطه لصاحبه عن ظهره .. ولم يعلم الصغيران أن حصانهم الخشبي يهتز لكل راكب بل وبغير راكب أحيانا!.

خرج الرعاة بأغنامهم إلى الوادي، وتبعهم صبيان القرية يتسابقون ويتضاحكون.

إمرأة تحمل في يدها كعكة صنعتها لجاراتها.

قائد يجهز جيشة لمعركته القادمة، وعاشق منهم يتسلل من معسكره ليودع محبوبته.

طبيب يكتب لمريض وصفة طبية، وشاعر يكتب قصيدة جديدة.

كل إنسان قد شغله شأنه ..

في منتصف النهار ظهر رجل غريب يسير في الوادي، كلما مر بقوم تبعته أعينهم لشدة حسنه، وكأن الشمس حين دفعت القمر عن ظهر السماء سقط إلى الأرض فكان هذا الرجل!.

سار الرجل الغريب حتى دخل القرية اليسرى، وطلب من أهلها أن يأخذوه إلى قصر الملك ففعلوا، وكان للملك مجلسا قد نصبه في حديقة قصره يقصده العلماء والشعراء والظرفاء يتجاذبون في مع الملك أطراف الحديث بين جد ولهو وتتلاقح فيه عقولهم بالعلوم والحكمة وتجارب الحياة، وكان الملك يستشيرهم في شؤون قريته.

أخبر الحراس الملك بخبر الرجل الغريب الواقف على باب قصره يستأذن في حضور مجلسه فأذن له.

- فلما دخل عليه وإستقر في مجلسه قال له الملك: من الضيف وما حاجته؟.
- قال: رجل يطوف البلاد باحثا عن أثمن شيء يملكه الإنسان.
- قال الملك: وما هو ذاك؟.
- قال: نفسه!.
- ضحك الملك وقال: تطوف الأرض باحثا عن شيء هو بين جنبيك؟!.
- قال: دام سرور الأمير، إن المرء لا يملك نفسه حتى يعرف معنى وجودها ومحلها من هذه الحياة، ومن هنا كان أكبر إمتحان للإنسان في حياته هو أن يجيب عن الأسئلة الوجودية الثلاثة (من أنا؟ .. لماذا أتيت؟ .. إلى أين أنا ذاهب؟).
  ولقد طفت البلاد شرقا ومغربا وزرت فلاسفة كل أمة فوجدتهم يجيبون على كل سؤال ثم إذا جاؤوا للسؤال الأهم الذي يكشف للإنسان حقيقة نفسه وقفوا حائرين، وأي علم ناله الإنسان إن جهل معنى وجوده ثم علم معنى وجود كل شيء سواه؟ .. وأي شيء ربح من خسر نفسه!.
  ثم إني أيها الملك -دام سلطانك- سمعت بمجلسك الذي يجمع عقلاء قومك، فتاقت نفسي إليه وعزمت على جعله أحد محطات رحلتي.
- وكان الشيخ "نَديمْ الجِسر" مفتي البلاد حاضرا في المجلس فقال: ليأذن لي الملك بالحديث الليلة لعل ضيفه يجد في كلامي بعض ما يبحث عنه؟.
- قال الملك: قد أذنت لك!، مجلسنا الليلة هو مجلسك وكلنا فيه ضيوفك.
  ثم إلتفت إلى خادمه وقال: يا غلام إملأ الأواني والكؤوس قبل أن يبدأ الشيخ بالحديث حتى لا يقطع إنصاتنا إليه شيء.

إستقر كل رجل في مجلسه، وهدأت الأصوات، وأصغت القلوب قبل الأسماع، فتكلم الشيخ نديم وقال:-

- إعلموا أن كل إنسان له "إله" يؤمن به و "دين" يتبعه شعر بذلك أو لم يشعر!
  وذلك أن الدين هو (تفسير الإنسان للحياة ومبادئه فيها) و الإله هو (غايته منها والدافع المحرك له فيها).
  فصور الآلهة تتنوع، ومظاهر التدين تختلف، إلا أنه لا يخلو إنسان من إيمان بدين ما دام له تفسير للحياة، ولا يخلوا من إيمان بإله ما دامت له غاية فيها؛ فإيمان الإنسان هو إنعكاس لنظرته لنفسه ومعنى وجوده ودوره في الحياة ومكانه منها.
  ومن فهم هذه الحقيقة علم أن إتخاذ العرب في الجاهلية لأصنامهم لم يكن نوع من الجنون!، فإن القوم كانوا من أعقل الخلق وأبصرهم بمعاني الأشياء وأشدهم إدراكا لحقائقها، وبسبب كون المعاني كانت واضحة عندهم أقاموا أديانهم وفقا لفلسفاتهم في الحياة ونظرتهم إليها : فـ[اللات] الذي هو أكبر آلهتهم كان رجلا شريفا في قومه يطعم الحجيج فيلت لهم الخبز مع اللحم ثريدا فسمي "اللات" لشدة كرمه فقد كان يذبح في كل عام عشرة آلاف بعير يطعمها للناس، فلما مات جاؤوا إلى الصخرة التي كان يصنع الطعام عندها فعظموها وإتخذوها وثنا يعكس نظرتهم للحياة القائمة على الشرف والمروءة ومكارم الأخلاق، والعرب لا ينظرون للحياة إلا من هذا الجانب حتى قال قائلهم :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا كله يكشف لك عن عقول القوم وعمق فهمهم للمعاني ووضوح الأفكار في أذهانهم وإتساقها، ولكن الخلل دخل عليهم من جهة محدودية النظر للحياة وحصرها في جزء من أجزائها مما جعل "آلهتهم" أيضا محدودة محصورة لتناسب منظورهم للحياة.

والإسلام حين جاء لم يغير مفهوم (الدين) و (الإله) الذي كان عند العرب والذي هو [فلسفة الحياة والمبدأ الذي تدور حوله]، بل أقرهم الإسلام على صحة هذا المعنى ولكنه صحح نظرتهم للحياة نفسها وأخرجهم من ضيق مفاهيمهم المحدودة عنها إلى المفهوم العام الشامل الذي يسع الحياة بكل ما فيها، وبهذا لم تعد العقول تقبل بآلهة ضيقة محصورة وآمنت بالله الواسع العلي الذي أحاط بخلقه جميعا، ولعل هذا أحد أسرار تعدد أسماء الله جل وعلا لتسع جوانب الحياة كلها فتضيئا بنوره وتتضمن جميع معانيها.

فتفسير الإنسان للحياة ونظرته لنفسه فيها هو "دينه" و غايته فيها هو "إلهه" الذي يؤمن به، ومن هنا نجد القران يقول {أفرأيت من إتخذ إلهه هواه} اي من كانت نظرته للحياة لا تتجاوز رغباته الشخصية فدينه "اللذة" وربه "الهوى" إذ من خلال هذه المنظومة الفكرية ينظر للحياة ويقيم الأشياء فيها ويفسرها في سياقها ويبيح لنفسه الأشياء أو يمنعها إنطلاقا من ذلك.

والأمر نفسه نجده عند النظر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال [تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار] وهو الذي ينظر للحياة من منظور المال والمصلحة الشخصية وحدها فيبيح لنفسه الأشياء ويمنعها بناءا على مفهوم "النفعية" ويقيم الناس والأشياء بل ونفسه والحياة بأسرها بميزان "القيمة المادية".

وبعد كل ما سبق نعود لسؤال ضيف الملك: فما هو الإنسان؟ .. وما معنى حياته؟ .. وما غايته فيها؟

هنا تأتي أهميه [قصة الخلق] التي هي أول قصة ذكرها القرآن وكل ما فيه بعدها راجع إلى معانيها قد سيق في سياقها، فقصة الخلق هي الأساس الذي يُبنى عليه كل شيء لأنها تكشف للإنسان حقيقة نفسه ومعنى حياته.

والقصة تجيب على سؤالنا الكبير بوضوح منذ الكلمات الأولى فيها، فهي تبدأ بالنهاية وتذكر لنا النتيجة قبل التفاصيل فتفتتح بـ {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة} .. "خليفة" الكلمة التي هي مفتاح الجواب على سر الإنسان الأكبر!.

(إني جاعل في الأرض خليفة) فالإنسان خلق لغاية واضحة وهي الإستخلاف في الأرض لعمارتها وإصلاحها، كما خلق المطر ليسقي الأرض ومن فيها، وخلقت الشمس لتضيء نواحيها؛ فكذلك خلق الإنسان ليرعى هذه الحياة وينميها.

وما وقع لآدم بعد ذلك من إدخاله للجنة ثم خداع الشيطان له وخروجه منها، كل ذلك كان إعدادا لآدم ولذريته لعمارة الأرض بتلقينه درسا أن (الشر لا يأتي بخير) وأن من إتبع دعاية أهل الشر أفسد على نفسه قبل غيره.

وهذا الدرس هو الذي يحتاجه الإنسان ليسير عليه في جميع جوانب حياته، فهو المراد من تجربة آدم كلها حين دخل الجنة ثم خرج منها.

أما الذنب فقد غفر لآدم قبل أن يخرج من الجنة {فتلقى آدم م ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطا منها جميعا} ، فالذنب في قصة الإنسان حدث جانبي، إنما المراد هو التعليم والتجهيز لعمارة الأرض التي هي الغاية الأولى من خلق الإنسان كما في بداية القصة، فلما تعلم الإنسان الدرس وتهيأ للإستخلاف في الأرض أهبط إليها تكليفا لا عقوبة.

والإسلام ليس فيه عقدة من الإنسان وأحواله من نقص أو كمال، إذ هو مخلوق على هذه الهيئة قصدا، ومعجزة الأنسان قدرته على أن يجتمع فيه الصواب والخطأ والجهل والعلم والضعف والقوة والخير والشر، فلا يميل إلى "شيطانية" فاسدة ولا إلى "ملائكية" زائفة فإن كلاهما في حق الإنسان قبيح مذموم مخالف لمراد الله منه حين خلقه إنسانا قال تعالى {ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم} وقال عليه الصلاة والسلام [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم] لأنهم حققوا بشريتهم وإجتمع فيهم الخير والشر والقوة والضعف والنقص والكمال، واللوم إنما يقع على الإنسان إذا فقد أحد جانبيه فإنسلخ بذلك من بشريته!.

والدين يضع الإنسان في مكانه الصحيح من الكون ويرشده إلى دوره في الحياة ويبين له مسؤوليته فيها، وذلك من خلال ثلاثة أصول عظيمة إليها ترجع مسائل الدين كله وهي : (إصلاح العقل) و (إصلاح النفس) و (إصلاح الحياة) فمن تحققت فيه هذه الثلاثة سمي [رجلا صالحا] :-

1- فإصلاح العقل: من خلال إعطاء التصور الصحيح عن (الإله) و(الإنسان) و(الحياة) ، لأن كل شر يقع من الإنسان سببه فساد تصوره في واحد من هذه الثلاثة، ولذلك حسم الدين هذه القضية بشكل قاطع لأنها قاعدة الإنطلاق لإصلاح الانسان لـ"نفسه" و"حياته" وخطوته الأولى في طريق تحقيق إنسانيته.

2- وأما إصلاح النفس: فمن خلال وضع نقطة نهاية في آخر الطريق، وذلك بإقامة المثل العليا للإنسان في الأخلاق والإيمان التي لا تطلب من الإنسان على هيئة الكمال الملائكي وإنما يطلب منه السعي إليها لا بلوغ غايتها

القصوى، ومن هنا يضرب لها القرآن مثلا بميدان السباق الذي يصل كل مشترك فيه إلا ذات النقطة في النهاية وإنما تتفاوت سرعتهم في بلوغها بحسب قوتهم وإجتهادهم.
فهذا القسم قائم في أصله على المكافأة لكل خطوة يخطوها الإنسان فيه وعدم الإلتفات لأي ضعف او خطأ ما دام الإنسان سائرا في طريق الخير وفي الحديث [الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفره الله: الإشراك بالله -إصلاح العقول-، وديوان لا يتركه الله: ظلم العباد فيما بينهم حتى يقتص بعضهم من بعض -إصلاح الحياة-، وديوان لا يعبأ الله به: ظلم العباد فيما بينهم وبين الله -إصلاح النفس- فذاك الى الله إن شاء عذبه وإن شاء تجاوز عنه] بحسب تحقيق المرء لإنسانيته وسعيه لتكميلها.
3- إصلاح الحياة: بإقامة سر على حافتي طريق الإنسانية تحمي الإنسان من الخروج عنه أو دخول ما يفسد المشروع الإنساني لإصلاح الحياة وعمارتها.
والدين في هذا القسم على عكس قسم (إصلاح النفس) لا يقدم المثل العليا بل يعطي الحد الأدنى متى نزل العبد عنه نزل عن رتبة الإنسانية! ، فوظيفة الدين هنا أن يُعرف الإنسان بحدوده التي متى تعداها خرج عن طريق الإصلاح وصار مفسدا في الأرض مجرم في حق الحياة والإنسانية.
وبالمقابل عند أهل الإصلاح يضع الدين للإنسان على طريقه لإصلاح الحياة الحدود فقط على حافتي الطريق ثم يترك لهم الطريق مفتوحا واسعا ليجتهدوا في عمارة الأرض والتقدم بحياتهم وإيجاد الحلول لمشكلاتهم داخل حدود الإصلاح.
والتفاضل عند الله في هذا القسم هو بحسب إبتعادك عن الحد الأدنى للإنسانية الذي بينه الشرع، فكلما كنت عن حدود الشرع أبعد كنت إلى الله أقرب!، على عكس قسم (إصلاح النفس).

فكل قسم من أقسام الشرع له نظامه الخاص به، والجهل بالسياق الذي جاء به كل قسم منها مفسد للدين والإنسان والحياة.

وهذا التنوع في المناهج بين أقسام الشرع هو الذي جعله مرنا يسع الحياة بأسرها، ولولا ذاك لعجز عن حاجات الناس أو لعجزوا هم عنه .

والخلاصة/ أن دور "الدين" في الحياة يتجلى بمعرفة دور الإنسان فيها، فدور الإنسان هو [الإستخلاف] ووظيفته إقامة الحضارة الإنسانية المهتدية التي تصلح "الإنسان" و"الحياة" جميعا، فمحاسبة الإنسان يوم القيامة ليست على الصلاة والصيام وحدها وإنما على إصلاحه لحياته بجميع نواحيها و عبادته جزء من ذلك لا كله.

ولأن أحوال الناس تتفاوت وظروفهم تختلف لم تكن المؤاخذة بمقارنة بعضهم ببعض، وإنما بالنظر إلى صدق إجتهادهم في أداء مهمتهم الإنسانية، فمن قام بدوره في حياته على أحد وجه فقد أدى ما عليه ولو ظن الناس أن دوره في الحياة كان صغيرا إذ العبرة بـ"الإحسان" لا بـ"الكثرة" ، فمتى وقع الإحسان في قيام كل إنسان بدوره لم يكن عند الله تفاضل بين الحاكم في مملكته والراعي في غنمه كما قال عليه الصلاة والسلام [ألا **كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته،** فالإمام الذي على الناس **راعٍ** وهو **مسؤول عن رعيته،** والرجل **راعٍ** على أهل بيته وهو **مسؤول عن رعيته،** والمرأة راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبد الرجل **راعٍ** على مال سيده وهو **مسؤول** عنه، ألا فكلكم **راعٍ وكلكم** مسؤول عن رعيته] فالمسؤوليات تتنوع صورها إلا أن حقيقتها واحدة وهي: أداء الإنسان للأمانة التي حملها بالإستخلاف لإصلاح نفسه وحياته.

فإختبار الإنسان هو إثبات صلاحه في قسمه من الحياة، فمن نجح في ذلك كان أهلا لسكنى الجنة، ومن كان مفسدا في الأرض -للإنسان والحياة- فإنه يبعد عن الجنة بقدر شره وفساده، وفي الحديث [الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب]، وليس المراد بـ"الصلاح" الخروج عن حد الإنسانية إلى مثالية ملائكية وإنما هو الصلاح الإنساني الذي يكون للإنسان فيه كلا الجانبين الصواب والخطأ والقوة والضعف والعلم والجهل إلا أنه يسعى ليكون إلى الخير أقرب من الشر كما خبر الرجل الذي خرج إلى القرية الصالحة طالبا التوبة فمات في الطريق [فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فأوْحَى اللَّهُ إلى هذِه أنْ تَقَرَّبِي، وأَوْحَى اللَّهُ إلى هذِه أنْ تَباعَدِي، وقالَ: قِيسُوا ما بيْنَهُما، فَوُجِدَ إلى هذِه أقْرَبَ بشِبْرٍ، فَغُفِرَ له] فالصلاح هو ان يسعى الإنسان إلى أن يكون أقرب إلى الخير منه إلى الشر في ميادين الصلاح الثلاثة: العقل والنفس والحياة.

والقصد أن "الدين" ليس هو مجرد إصلاح الصوم والصلاة ولكنه إصلاح الإنسان كله، ومن هنا كان مفهوم (العبادة) في الإسلام يشمل الحياة كلها، فدراسة العلوم بجميع أنواعها عبادة {وعلم آدم الأسماء كلها}، وإتقان العمل عبادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه]، وحسن الخلق عبادة [أقربكم مني منزلة أحاسنكم أخلاقا]، والإحسان إلى الخلق عبادة [في كل كبد رطبة صدقة]، والصحة والرياضة عبادة {وآتيناه بسطة في العلم والجسم}، ورقة الشعور عبادة [الحياء شعبة من الإيمان]، والجمال والزينة عبادة [إن الله جميل يحب الجمال]، وفن الطبخ عبادة {وجاء بعجل حنيذ}.. وكل صغير وكبير في حياة الإنسان عبادة ميزانها {ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذره شرا يره}.

ويجمع ما سبق كله قول النبي عليه الصلاة والسلام [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير] فما من مجال من مجالات الحياة -مهما صغر- يكون المرء فيه قويا إلا كان ذلك منه قربة إلى الله يرفعه بها درجات لأن ذلك داخل في قيامه بوظيفته الإنسانية في إصلاح نفسه وإصلاح الحياة، وفي الحديث [تبسمك في وجه اخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال اك صدقة، وبصرك بالرجل الرديء البصر -عديم الخبرة- لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة].

فهذه هي حقيقة "الإنسانية" وهذا هو المعنى الوجودي لأهلها . . .

أوشكت الشمس على المغيب.

وطارت الطيور تاركة مجلس الملك، وبقيت كلمات الشيخ يتردد صداها في نفوسها يتغنون بها في تغاريدهم وهم يحلقون في سماء الوادي كأنها قصيدة من الجنة أو تسبيحة من تسابيح الملائكة، وأسرعت الطيور إلى "رِفعَة" لتخبرها الخبر.

وحل الشتاء الأخير ..

###

7- الحياة .

رجل ينادي صارخا: يا أهل الوادي! .. يا أهل الوادي! .. يا أهل الوادي!.

ألم يكفكم نوم الشتاء الطويل؟، قد طلعت شمس الربيع وهذا "إبن فَضْلان" رحالة العرب قادم إليكم!.

فتحت عيني لأجد أهل القريتين يتسابقون إلى الوادي زرافات ووحدانا كلهم يريد أن يرى إبن فَضْلان ويسمع عجائبه وأخباره، حتى إجتمعوا حول صخرة قد هيأوا عليها مجلسه.

إنتظروا قليلا ثم ظهر خيال رجل من بعيد راكب جملا عليه من كل بلد زينه جعلته أبهى من الربيع وأزهى من الزهر، فقاموا إليه يزفونه حتى إنتهى إلى المكان الذي قد أعدوه له.

جلس إبن فَضْلان على الصخرة ينظر إلى أهل الوادي وقد إجتمعوا له كما لم يجتمعوا لأحد من قبله وهم إلى كلامه بالأشواق، فأخرج أوراقا من حقيبته قد دون فيها أخباره وما رأى في رحلاته، ثم قال:

- زرت (أفريقيا) فوجدت قومها أهل لعب وطرب، لا يحملون هما، ويعيشون كيفما إتفق، قد إنشغلوا باليوم عن الغد. وهم لا يتعمقون في العلوم ويعدون ذلك من قلة العقل وتضييع العمر، لأنهم لا يفهمون الحياة إلا على معنى واحد وهو "المتعة".
  فهم من أريح الناس بالا، وأطرفهم عيشا، لا يحلون في مكان إلا ويجلبون له السرور معهم، وذلك فيهم طبيعة لا يحتاجون معها إلى تكلف.
  ومن عجائبهم أني رأيت قوما منهم يغنون للشمس ويرقصون في كل صباح ومساء، يزعمون أنها لا تتحرك إلا طربا لهم ولولاهم لم تشرق على الدنيا شمس ولم تغرب!.

وقد رزقوا حسن الصوت، والبراعة في الطرب، حتى كأن الألحان تجري في دمائهم فهي تصدر منهم بغير عناء، ورقصاتهم رغم براعتها بسيطة لا تكلف فيها ترتاح لها العين وتسر بها النفس، وهم يزيدونها جمالا بكثرة الألوان في ثيابهم التي تشبه طبيعة نفوسهم المائلة لكل سرور.

- وزرت (اليمن) فرأيت قرى مملكة "بلقيس" المرأة التي ورثت عرش أبيها فكانت أول ملكة للعرب، وقومها يزعمون أن أمها كانت من الجن وأبوها من الإنس فكانت بذلك أجمل النساء وأشدهم ذكاءا.

ضحكت فتيات قرية الجن حين سمعن ذلك وأخذن ينظرن إلى شباب الإنس ويتغامزن.

قال إبن فَضْلان: وعند أهل تلك الديار شجرة يقال لها "البن" قد فتن القوم بها فهم يشربونها ليل نهار وينشدون في التغزل بها الأشعار ويستعلون بها على سائر الديار، ولَهُم أشد نشوة بها من كأس المدامة والعقاقير على أنها لا تصنع شيئا لإسعادهم سوى إيقاظ عقولهم المرحة وتنبيه نفوسهم المشرقة.
على عكس أهل البلادة والنفوس الثقيلة الذين لا يهنأون بعيشهم إلا بإخماد نفوسهم وعقولهم!.
والسعادة لم تكن يوما شيئا يحصله الإنسان من خارج نفسه، وإنما هي شيء داخله ينعكس منه على كل ما حوله، ولذلك تجد كل شيء ممتع مع أهل المرح وتجد الثقيل يقتل كل متعة.
ولقد تفكرت يوما "من أسعد أهل الأرض؟" فوجدتهم [الأطفال]، فتأملت حالهم فإذا هذا السر الكبير من أسرار الحياة -السعادة- من أوضح الأمور عندهم، فتراهم يصنعون السعادة في كل ما حولهم ويلهون بكل شيء بل وبلا شيء! ،وذلك لان إستمتاعهم في الحقيقة ليس بالأشياء ولكن بأنفسهم ..

- وزرت (الهند) ورأيت فيها عجائبا، وكان مما رأيت قرية لا تدخلها حية ولا عقرب، ولو حمل إليها شيئا من ذلك مات فور إدخاله للقرية، وأهل تلك الديار يزعمون أن ساحرا كان في قريتهم قد إشتكى إليه الناس الحيات والعقارب، فباتوا ليلتهم تلك ولما أصبحوا وجدوا كل حية وعقرب في القرية ميتة!، ويزعمون ان هذا الضرب من السحر قد ذهب أهله ولم تبق إلا آثاره شاهدة عليه.
- وزرت (الروم) فوجدتهم أتقن الناس لعمل، وأجدهم سعيا لأمر، إذا دخلوا في شيء لم يتركوه حتى يبلغوا غايته، لا ينقطع سيرهم ولا يفل عزمهم، قد أخذوا الجد والإجتهاد في دقيق الأمور وجليلها، حتى إنهم ليعدون للهوهم كما يعدون لحربهم!!.
- ورت (الصين) و أرض (الروس)... إلخ.

وكان أعظم شيء تعلمته: أن [الحياة تجربة]!

وهذه الحقيقة من فهمها إستمتع بالحياة بكل ما فيها من حزن وفرح وجد ومرح وشدة ولين وصحة ومرض، لأنه في كل مرة يخوض "تجربة" جديدة تكشف له من معاني نفسه ومعاني الحياة شيئا جديدا.

ولقد طفت العالم كله مشرقه ومغربه، ورأيت كثيرا من عجائبه، وإلتقيت بشعوبه وقبائله، كل ذلك فعلته ليقيني بـ"الآخرة"!.

لأني حين أيقنت بها علمت أن في الحياة أمورا متى فاتت المرء لم يمكنه تداركها، ورأيت الناس لا يمنعهم من خوض مغامرات الحياة وتجاربها إلى الجهل بمعناها الحقيقي وكونها مجموعة التجارب التي تمر بالإنسان في عمره.

فلما تبين لي هذا منها: أبصرت الجمال في كل تجربة يراها الناس عسيرة، وتلذذت بكل خوف وألم وتعب وجوع ومرض وإغتراب، وعلمت أن احدا لا يخاف من ذلك إلا لضعف يقينه بالآخرة ونعيمها.

وكنت كلما شعرت بالتعب والإكتفاء من خوض تجارب الحياة والسير في الأرض تذكرت الجنة ومجالس أهلها، وما يروونه فيها من قصص مرت بهم في حياتهم، وذكرت جلوسي بينهم ثم سألت نفسي: أي شيء سأروي إن قضيت عمري بين أكل ولعب وسكون ودعة وإستقرار؟ وهل هذه إلا حياة البهائم!.

إن الحياة مغامرة ممتعة مليئة بالمفاجآت، فلا تعد نفسك حيا فيها ما لم تخض ذلك كله، وإلا فكن "صخرة" من الصخور تتحرك الحياة من حولها وهي ساكنة، ويمر بها العمر وهي واقفة في مكانها، لا حية فتتقلب مع الأحياء ولا ميتة قد محي وجودها!.

وهل إختارت العرب الترحل على الإقامة إلا لتمام عقولها وكمال حياة نفوسها؟!

وإني إمرؤ منهم، فلن يقر لي قرار ما دام لي قلب ينبض وعين تبصر وقدم تتحرك.

ولأنزلن من الحياة في كل يوم منزلا ..

ولأطلعن في كل مرة على سر جديد من أسرارها ..

ولأذوقن بكل تجربة حالا جديدة من أحوالها ..

حتى إذا حان الأجل، وطلبت الروح مفارقة الجسد، كنت قد عشت الحياة بطولها وبعرضها وبحلوها وبمرها، فأخرج منها غير نادم على تفويت شيء فيها، وأروي لأهل الجنة كما أروي لكم الآن عجائب أخبارها، وأضحك بقصصي الأنبياء في فردوسها!.

وأحيا ما حييت مرددا قول القائل:-

تغربَ لا مُستعظِماً غيرَ نفسهِ

ولا قابلاً إلا لخالقهِ حُكما

ولا سَالِكاً إلا فُؤادَ عَجاجةٍ

ولا ذَائِقاً إلا لِمَكرُمةٍ طَعما

يقولون لي: ما أنت في كل بلدةٍ؟

وما تَبتغي؟، ما أبتغي جلّ أن يُسْمى

وإني لَمِن قومٍ كأن نفوسهم

بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظمَ

كَذا أنا يا دنيا .. فإن شِئتِ فإذهبي

ويا نفسُ زيدي في كرائهها قُدمَا

ثم قام حاملا حقيبته على ظهره، وإنطلق لرحلة جديدة ..